

تاريخ العروتين مشترك أو منفصل ؟

✍. فضيلة الأستاذ عز المغرب معينند

مدخل

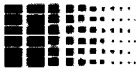
منذ عصور ما قبل التاريخ استوطن البشر ضفتي نهر أبي رقرق، واتخذوا من مصبه الطبيعي في البحر مرسى لهم¹، وتمكنوا من التواصل مع المراسي الأطلسية المغربية، واستقبال العديد من المغامرين من ملاحي مراكب وسفن الحضارات المتوسطية (الفنيقيين، الرومان...) انفتاح بحري أهل سكان الضفتين من التلاحق الدائم والمتنوع مع حضارات كثيرة. أما من الجهة البرية فانبساط ضفتي وادي أبي رقرق عند التقائهما بالشواطئ الرملية عند مصبه في البحر²، جعل موقع العدوتين معبرا ومجازا سهلا ورئيسيا لكل الأفراد والجماعات الراغبة في التنقل بين شمال وجنوب المغرب على الأقل من جهته الغربية الساحلية، هذا المجاز النهري الآمن وسهل العبور جعل سكان الضفتين أكثر اندماجا وتواصلا مع باقي سكان المغرب منذ أقدم العصور.

حركة بشرية نشيطة بحرا وبرا، حولت ضفتي أبي رقرق إلى أسواق تجارية ومحطات توقف لابد منها تشرف عليها قلاع عسكرية لتأمين انسياب البشر والسلع، أنشطة متعددة أسهمت مما لاشك فيه في ظهور مدن حضرية مازالت آثار بعضها معروفة وبادية للعيان، وأخرى شبه مجهولة خاصة على الضفة اليمنى مثل موقع سلا الغابرة³، مواقع لم يحسم بعد في أمرها التاريخي، تقارب مواقعها وتشابه أسمائها في المصادر القديمة، إضافة إلى ما تعرضت له من تدمير طبيعي وتخريب بشري يطرح إشكالية التحقق الزمني للمواقع الأثرية المشتركة بالضفتين، وقضية الخلط في الأسماء. إلى يومنا هذا ليس بالأمر الممكن تاريخيا أن نحدد الحقب الزمنية لنشأة وتطور كل المواقع العمرانية القديمة للمجال المحادي لمصب أبي رقرق، ودليلنا على ذلك هو،

1- أن آخر الاكتشافات الميدانية حدثت صدفة، ف أثناء إنجاز أشغال حفرة عادية بولجة سلا، لتهيئة أسس بناء قنطرة على وادي أبي رقرق خاصة بالطريق السيار الرابط بين سلا والرباط سنة 1996م، برزت على السطح معالم موقع أثري قديم، مواد بنائه وهندسته وعمرانه شبيهة بآثار مدينة شالة⁴، وبعد محاولات فاشلة لمنع بناء القنطرة المذكورة فوق الموقع المكتشف، أجهزت عليه آلات الحفر الميكانيكية الضخمة نهائيا وإلى الأبد.

2- قبل حوالي سنتين وعن طريق الصدفة مرة أخرى، وأثناء إنجاز أشغال عادية لتهيئة الأرض المجاورة لقصبة الأوداية القريبة من الطريق لاستغلالها كموقف للسيارات والحافلات السياحية، تم اكتشاف آثار قديمة تعود إلى الحقبة المرابطية وليس الموحدية كما كان متداولاً⁵.

وتثميناً لما ذكرناه دعا الدكتور محمد حجي إلى المزيد من البحث والتقصي وضرورة القيام بحفريات خاصة في منطقة الولجة وربوتها المجاورة لعين أسمير، لاحتمال وجود سلا الغابرة مطمورة تحتها⁶، متهما بعض المؤرخين المتأخرين بقصر النظر لزعمهم بأن لا وجود لمدينة في الضفة اليمنى. أما إشكالية الخلط في أسماء مدن أبي رقرق فيعتقد الدكتور محمد زنيبر أنها أتت من بعض المصادر الأجنبية (Salé le vieux et Salé Neuf)، التي لم يثبت أصحابها في ضبط الأسماء لخلق بعض الحساسيات والمنازعات على مستوى تحقيق الأحداث التاريخية بين العدوتين، لضمان مصالح سياسية على حساب ما هو تاريخي⁷. ويؤكد المؤرخ زنيبر أنه لا يمكننا أن نكتب تاريخاً خاصاً بكل واحدة من مدن العدوتين دون أن نضعه في إطاره المشترك الذي يجمع فيما بينهما، فكل مؤرخي العدوتين واجهتهم هذه الإشكالية، بداية بتاريخ الضعيف الرباطي الذي ينتهي في سنة 1818م⁸، ويمكن اعتباره من الأوائل في العصر الحديث، الذين اتجهوا إلى الكتابة عن تاريخ مدن ضفتي أبي رقرق، ورغم محاولته التركيز على كتابة تاريخ الرباط مقر سكناه، نجده يمدنا بمعلومات اجتماعية وسياسية وحضارية هامة عن جارتها سلا، وكذلك فعل أبو إسحاق إبراهيم التادلي الرباطي في مؤلفه "زينة النحر في علوم البحر"⁹ فقد زودنا بأخبار مهمة عن تاريخ العدوتين وعلاقة سكانها بأنشطة الملاحة النهرية والبحرية. أما في الكنانيش المخزنية ومن أهمها زمام الرايس عبد السلام العلمي في أمور البحر، فقد ذكر لنا هو الآخر سنة 1808م تقابيد دقيقة عن أنشطة وعدد رجال البحرية والطبجية بالعدوتين¹⁰.



وفي أواخر القرن 19م لما انبرى عدد كبير من الباحثين الأوروبيين بمختلف مشاريعهم العلمية إلى إعداد دراسات وأبحاث عن تاريخ العدوتين، اهتموا كثيرا بشالة والرباط دون إغفال تاريخ سلا ولو بدرجة أقل. وذلك راجع إلى عدم تمكنهم من حرية زيارتها، وبالأحرى الإقامة بها (امتناع نخبها وساكنتها عن السماح للناصري الأوروبيين بالاختلاط بهم أو السكن داخل أسوار مدينتهم العتيقة¹¹).

وملئى هذا الفراغ ورد الاعتبار إلى التاريخ المغربي المحلي، تخصص المؤرخ محمد ابن علي الدكالي السلوي في موضوع تاريخ العدوتين، واستغل فيه العديد من الوثائق المحلية المغمورة، وانفرد في ذكر مادتها العلمية دون غيره، ميزة علمية جعلته قبلة للمؤرخين المغاربة مثل ابن زيدان المكناسي، وعبد الحي الكتاني الفاسي وابن إبراهيم المراكشي ومن الرباط محمد دينية ومحمد بوجدار، وهذا الأخير دخل في نقاش حاد مع ابن علي الدكالي حول هل سلا الغابرة أقدم من مدينة شالة أو العكس هو الصحيح، ودليله عدم وجود آثار قديمة بالصفة اليمنى مقارنة مع ما عثر عليه في شالة¹².

جهود مؤرخي العدوتين الشخصية دفعتهم إلى التعاون مع بعض المستشرقين الأجانب مثل ليفي بوفنصيال وميشوبيليروهني طيراس وجورج كولان وغيرهم ممن اهتم بتاريخ المغرب عامة والعدوتين خصوصا.

ويبدو لنا بان مؤرخي العدوتين قد تأثروا بالعلامة المؤرخ أحمد الناصري السلوي بعد نجاحه الباهر في تأليف: "الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى" وطبعه بالقاهرة سنة 1894م، وخلال اكتفى الناصري بالإشارة إلى الأحداث الكبرى التي هزت مجتمع العدوتين دون التوسع في شرح حيثياتها على شاكلة منوغرافية محلية تخص سلا والرباط داخل سياق التاريخ المغربي، وتداركا منه لما قد يعاب عنه بعدم إتخاف العدوتين بمؤلف خاص، نجده قد شجع تلميذه ابن الدكالي على إتمام مؤلفاته المرتبطة أساسا بتاريخ العدوتين¹³. كما حفز أولاده على إتمام نشر واستغلال وثائقه ومخطوطاته التي تركها لهم في خزائنه العائلية بسلا، وسيرا على وصيته تفرغ أبناؤه محمد العربي وجعفر ومحمد الناصري ملأ الفراغ الذي تعاني منه الخزنة التاريخية للعدوتين، وأخيرا صدر لجعفر الناصري مؤلف في غاية الأهمية "سلا ورباط الفتح وأسطولهما وقرصنتهما الجهادية" في ستة أجزاء سنة 2006¹⁴. وله مؤلفات أخرى مازالت مع الأسف مخطوطة وأسيرة عند ورثته لا نعرف عنها إلا عناوينها، اذكر منها "الإحصا لما

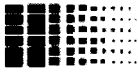
وقع بعد الاستقصا" ذيل به جعفر مؤلف والده "الاستقصا" وأرخ فيه للأحداث التي شهدتها المغرب وخاصة العدوتين خلال الدولتين العززية والحفيظية¹⁵. وعلى شاكلته ألف العلامة عبد الله الجبري الرباطي "أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين" وعبد العزيز بن عبد الله وآخرون، وكذلك اهتمت الدراسات الأكاديمية بالعدوتين أذكر منهم عبد اللطيف الشاذلي "الحركة العياشية"، محمد حجي "الزاوية الدلائية" حسن اميلي "الجهاد البحري بمصب أبي رقرق في ق17" طبع أخيراً، سعاد الزاكي "ميناء العدوتين 1822-1856 وآخرون".

ليس المقصود من هذا الجرد الببليوغرافي رصد كل ما كتب عن حواضر مصب أبي رقرق، إنما ارتأينا لأسباب موضوعية التذكير فقط وباختصار شديد بأن معظم المؤرخين المحليين واجهتهم صعوبة الفصل وبكل موضوعية بين تاريخ الرباط وسلا المتداخل في معظم قواسمه المشتركة.

ولتجاوز الإشكالية المطروحة هل تاريخ العدوتين مشترك أو منفصل؟

ارتأينا طرح منظور جديد وشمولي يعتمد على مقارنة تاريخية تحليلية لما شهدته ضفتا أبي رقرق من وقائع وأحداث عبر الأزمنة الماضية، منذ الوهلة الأولى نعتقد بأن العدوتين تشكل مدينة واحدة، ونهر أبي رقرق يفصل بين أحيائها مثل الكثير من المدن العالمية كبغداد والقاهرة وباريس وبودابست... إلخ، مدن شالة وسلا وفي ما بعد رباط الفتح وقصبة الاوداية ترتبط بمرسى المصب، فابي رقرق هو القاسم المشترك لكل هذه الأحياء المدن المتجاورة والمتقاربة والمتنافسة في ما بينها. ارتبطت كل واحدة منها ومنذ تأسيسها عضوا وتاريخيا بأنشطة مرسى المصب الطبيعي، لذلك عملت كل مدينة على حدة وخلال حقبة معينة من الزمن، وانطلاقا من موقعها الجغرافي ونوعية سكانها وأصولهم المختلفة وعلاقاتهم بالسلطة المركزية الحاكمة سواء كانت متواجدة داخل أو خارج المغرب، على محاولة الهيمنة بالقوة المالبة والعسكرية على كل أو جل أنشطة المرسى التجارية والقرصنة والسفكية¹⁶.

هذا الصراع الطبيعي والتاريخي الطويل، أكسب كل مدينة شخصيتها وخصوصياتها وعصبيتها، الأمر الذي يجعل ميزان القوة والنفوذ يتغير باستمرار، ويتأرجح في ما بين ضفتي النهر، مرة يميل إلى فائدة الضفة اليسرى، ومرة يميل لصالح الضفة اليمنى، وأحيانا تلتحم الضفتين معا لمواجهة الخطر الخارجي القادم من جهة البحر أو البر، كما حدث أيام الكفاح الوطني ضد الحماية مثلا.

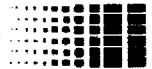


هذا التناقض الجيوستراتيجي بين الضفتين العابر للتاريخ العام للمنطقة، يدفع سكان كل ضفة إلى العمل على احتكار أنشطة المرسى المختلفة والتحكم في مجاز العبور بين العدوتين، وبالتالي تولي قيادة كل الجهة بحضرها وبدونها، على سبيل المثال ساذكر حالتين لتحول ميزان القوة بين الضفتين:

المثال الأول: ارتباط حكام وتجار مدينة شالة الضاربة في عمق التاريخ بقوة أجنبية متمركزة خارج المغرب قدموا من جهة البحر، إثمار نفوذ شالة على إثر رحيل الرومان عنها، وبالتالي فقدت هيمنتها على الضفة اليمنى التي اتخذها الفاتحون المسلمون الجدد والقادمون برا من شمال شرق المغرب، والمتحالفين مع الأمازيغ المحليين مقرا لهم، ومنطلقا لمهاجمة الحركة البرغواطية بتامسنا والتي اتخذت مدينة شالة معقلا لها أواخر ق2هـ وأوائل ق3هـ.

بفعل هذه التحولات الكبرى دخلت منطقة المصب مرحلة انتقالية، هي الأخرى يكتنفها الكثير من الغموض، لأنه من الصعب تحديد زمن اعتناق سكان منطقة العدوتين للإسلام، مما لاشك فيه أن الفاتحين في البداية عملوا على تكيف كل ما وجدوه من قلاع وحصون وعمران قديم إلى حواضر إسلامية¹⁷، وبعد تأسيسهم لدول قائمة الذات (الإدرسية و... المرابطية) عملوا على بناء حواضر جديدة تتلاءم مع معتقداتهم وحضارتهم العربية الإسلامية والمرتبطة ببلاد الأندلس، في الوقت الذي انهارت فيه سلطة الضفة اليسرى وخراب عاصمتها شالة¹⁸. انتقل سكان الضفة اليمنى - سلا الغابرة - من مواقع ثانوية ذات طابع عسكري داخل مجرى أبي رقرق إلى مواقع جديدة¹⁹ تشرف على سواحل المحيط الأطلسي أكثر أمانا وتحصينا - سلا الحالية - وتميمن على مدخل المصب حيث توجد المرسى²⁰. هذا التحول في ميزان القوة بين الضفتين يقودنا إلى غموض آخر حول تاريخ تأسيس مدينة سلا الحالية وقصبة الأوداية في موقعيهما الحالي، ومن هو مؤسسهما، غموض يعود إلى تضارب النصوص القديمة والقليلة الواردة عند الرحالة الجغرافيين والمؤرخين العرب القدماء.

المثال الثاني: ساسوقه من أحداث القرن 19م، لما عمل السلطان مولاي عبد الرحمان علي فتح المراسي المغربية بطريقة تدريجية في وجه النشاط التجاري مع أوروبا الغربية²¹، ونظرا لترسب حمولة ضخمة من الرمال والطمي فوق الضفة السلاوية، عزلت وبشكل نهائي عن معظم أنشطة مرسى أبي رقرق، وبالتالي أصبحت الضفة اليمنى تعاني من الخمول والبؤس، وبالمقابل أصبحت الضفة الرباطية العميقة نسبيا والصالحة لرسو السفن نشيطة وتحتكر كل مضاربات الحركة التجارية للمرسى، كما



استمرت بها جالية أجنبية تتشكل من التجار وممثلي الشركات وقناصل الدول الأوروبية²²، فمال ميزان القوة والنفوذ لصالح الضفة اليسرى، وتحولت سلا إلى شبه مدينة داخلية، ومجرد قنطرة أو نقط عبور ليس إلا. وازداد الكيل رجحانا لفائدة الرباط لما حولها المقيم العام الفرنسي الجنرال اليوطي إلى عاصمة جديدة للمخزن المغربي وللإدارة الكولونيالية الفرنسية، ومقرا رئيسيا لكل السفارات الأجنبية. وفي عهد الحماية شهدت الرباط طفرة نوعية في ميدان العمران والتحديث، في وقت تركت سلا لمواقفها المتنعة من السلطة الجديدة كمتحف شاهد على مغرب القرون الوسطى²³.

ولتعميق هذه الفوارق حاول المستعمر إثارة بعض الحساسيات والمنازعات بين سكان العدوتين لضمان مصالح سياسية على حساب ما هو تاريخي، لكن النخب المثقفة بالعدوتين عملت على خلق مناخ من التعاون والتوافق والتنسيق في مواجهة سياسة التفريق التي نهجتها الإدارة الاستعمارية. وبالتالي تمكن رجال العدوتين من بلورة قاعدة ثقافية نضالية تهدف إلى التغيير وطرح البديل داخل ما سمي بالحركة الوطنية، وفي عهد الاستقلال استمر الوضع على ما كان عليه، وازداد تهميش الضفة اليمنى، وأصبحت سلا مجرد ضاحية سكنية شبه عشوائية في خدمة العاصمة.

والأمل كل الأمل في نجاح مشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق وربط العدوتين بقناطر ووسائل نقل حديثة تسهل الانسياب والاندماج بينهما. فزهر أبي رقراق نقطة التقاء لا حدا للافتراق، ومن القضايا المطروحة اليوم للنقاش داخل المجتمع المدني في إطار تفعيل السياسة الجهوية والحكمة الجيدة المطالبة بتوحيد العدوتين كعاصمة جديدة للمملكة المغربية الديمقراطية.

وفي الختام أعود لأقول بأن التداخل الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي الحاصل بين العدوتين منذ أكثر من ألف سنة، يجعلنا لا نشاطر منهجية الفصل تاريخيا بين مدينتي سلا والرباط التوأمتين، فكل مؤرخي العدوتين واجهتهم هذه الإشكالية وتعاملوا معها من منطلق الاندماج لا الانفصال للنقد الموضوعي بعيدا عن العصبية الضيقة، وأعتقد أن كل دراسة تعتمد إقصاء إحدى الضفتين ستفرز صورة تاريخية مشوهة وغير واضحة المعالم.



الهوامش

- 1- تعتبر المنطقة الواقعة بين وادي أبي رقراق ووادي الشراط غنية في مضمار التاريخ، وبشريط حي الرحمة بوقنادل عثر على أقدم جمجمة (إنسان سلا Homo-Eructus) دليل على وجود حياة بشرية ضاربة في عمق التاريخ مرتبطة ببيئة معينة قديمة.
- 2- عبد الله لعويبة "الإطار البيئي العام للعدوتين"، الندوة العلمية، ج1، ص27-37.
- 3- عثمان عثمان إسماعيل "تاريخ شالة الإسلامية" تقمص كل النصوص القديمة والحديثة المتعلقة بأسماء المواقع التاريخية في مصب أبي رقراق وطبوغرافيتها، دار الثقافة بيروت 1975م.
- 4- AKERRAZ Aomar «explorations ed Mérciuos» Bulletin d'archéologie Marocaine N° 19, p(191-214).
- 5- ذكر كناشة بالخرانة العلمية الصبيحية بسلا رقم 575، ص27 أنه عثر على آثار عجيبة بسوق الغزل سلا عام 1335هـ وهي عبارة عن مطمورة بها العديد من الأواني الفخارية ذات النقش الأندلسي لكن الناس أخفوا ذلك خوفا من تدخل سلطات الحماية.
- 6- محمد حجي "ظاهرة الجهاد في تأسيس سلا والرباط" الندوة العلمية، ج1، ص39-44.
- 7- محمد زنيير "خط في الأسماء ووحدة في الروح والهدف"، الندوة العلمية حول الرباط وسلا، ج1، ص45.
- 8- الضعيف محمد الرباطي، حققه أحمد العماري، الرباط، 1987، دار المآثورات.
- 9- مخطوط في الخزانة العامة ضمن مجموعة د1347.
- 10- أصل الكناشة بالمكتبة الناصرية الخاصة، نسخة مصورة عنها بالخرانة الوطنية بالرباط رقم د14096، جمعها الأمين عبد الهادي العسكري.
- 11- للمزيد من المعلومات يستحسن الرجوع إلى "مدينة سلا ما بين نهاية الفرضية وبداية الحماية (1851-1912) أطروحة من إعداد عز المغرب معنينو مرقونة بخزانة، كلية الأدب الرباط. 2004.
- 12- "تاريخ شالة"، ص16، لكنه تراجع في مؤلفه "مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح"، ص17 و28 وكذلك ابن علي الدكالي توصل إلى اكتشافات أخرى أبرزها في "لمحة من تاريخ سلا" نشرت كملحق بالإتحاف الوجيز، ص167.
- 13- اذكر منها: "الإتحاف الوجيز، تاريخ العدوتين" حققه مصطفى بوشعراء خ.ع.ص، سلا 1996م، إتحاف أشرف الملأ ببعض أخبار الرباط وسلا، وأنواع البستان في أخبار العدوتين ومن درج من الأعيان.

- 14- مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة تاريخ المغرب، تحقيق أحمد بن جعفر الناصري، مطبعة المعاريف الجديدة، الرباط 2006.
- 15- عبد الحق الميرني "العدوتان في ذاكرة ابن العدوتين البار العالم جعفر بن احمد الناصري السلوي، الندوة العلمية، الرباط وسلا، ج.1، ص.191، ومحمد دينية الرباطي "مجالس الانبساط بشرح تراجم الرباط 1986، ومحمد بوجندار الرباط "الاعتباط بتراجم الرباط"، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط 1987، ومقدمة الفتح من تاريخ الرباط"، المطبعة الرسمية الرباط 1894.
- 16- الباحث الأجنبي تعامل هو الآخر مع تاريخ العدوتين كوحدة متكاملة، أذكر هنا ما استفاه الباحث جون لوي مبيج من الأرشيف البريطاني عن النشطة الحرفية بالرباط وسلا، وتطور مرسى العدوتين التجاري خلال ق19م، وكذلك الباحث برونولويز Bruno Louis فيما يخص علاقة سكان العدوتين بتقاليد البحر ولـGoulven في دراسته عن أوضاع ملاح اليهود بالرباط وسلا والباحث Ricard.P و Mercier.L وغيرهم.
- 17- الحسن الوزان بكى على حال مدينة رباط الفتح الموحدية "وصف إفريقيا"، ص.208، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، جزأين منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، بيروت 2000م.
- 18- إبراهيم حركات "تأملات في التاريخ الاجتماعي للعدوتين": الندوة العلمية، ج.1، ص.75، والمعلمة المغربية بقلم محمد حجي، الجزء 15، ص.5059.
- 19- نظرة الأصل التجاري لنشأة المدن، باعتبارها تجمعات تجارية تركزت حول نواة معينة معتمدة في تطورها على التجارة.
- 20- ابن علي الدكالي "لمحة من تاريخ سلا" نشرها محقق الإتحاف الوجيز بالطبعة الثانية سنة 1996 ملحقة به ص.164، ودراسة كنيث براون "موجز تاريخ سلا 1000-1800" منشورات الأمل 2001.
- 21- سعاد الزاكي "ميناء العدوتين سلا والرباط 1822-1856" مرقونة بخزانة كلية الآداب 1998.
- 22- عبد الإله الفاسي "مدينة الرباط وأعيانها في ق19م، وبداية ق20، منشورات جمعية رباط الفتح، الرباط 1996م.
- 23- العربي الواحي "المجتمع السلاوي في ظل الحماية"، مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط.